الخطاب الصوفي بين الماهية والمرجع (*)

Sufi discourse between singification and reference

سوهيلة بن عتسو / طالبة دكتوراه
مخبر التأويل وتحليل الخطاب، جامعة بجاية
البريد: benatsousouhila60@gmail. com

ملخّص : تبحث هذه الدراسة في مجال الخطاب الصوفي الذي يعدُ من أهم الخطابات في الثقافة العربية الإسلامية، لما يحمله من خصائص فنية جمالية متفردة، وما يحدثه من جدال معرفي وفكري وسط الساحة النقدية، فهو مرجع ضخمٌ في مجال الفكر والأدب، يحمل في طياته دلالات فكرية ورموزا وعلامات قامت بتعميق معاني العقيدة وإبراز قيمة الإنسان، والعمل على إزالة الفوارق وإشاعة التسامح والحوار بين الثقافات والأديان.

فالتصوف خطاب متشعب وهذا نظرا لمكوناته المتفرعة بين الكتابة الصوفية (الشعر، النثر)، والممارسة الروحية (يتعلق بكل ما هو روحي)، ثم الاصطلاح الصوفي، وهذا ما يطرح لدينا إشكالا مهما يتعلق بماهية التصوف الإسلامي، فما هي الأصول المعرفية والمرجعيات الثقافية للخطاب الصوفي؟ وما هي خصوصياته المتعلقة بظواهره النصية؟

الكلمات المفتاحية : التصوف، الماهية، التصوف الإسلامي، الرمز، الإشارة، المصطلح، الخلفية الفكري.

Abstract : The present study examines the field of Sufi discours which is considered as the most important discourses in the Arabic-Islamic culture, for its unique artistic and aesthetic features, and the intellectual and cognitive debate it causes in the field of criticism. Indeed, it is a huge reference in the field of thought and literature, holds out intellectual meanings, symbols and signs, which have deepened the meaning of doctrine, showed the worth of the human being, and worked to eliminate differences and, promote tolerance, and dialogue between cultures and religions.

* تاريخ تسلم البحث: 2020/01/20، تاريخ قبول البحث: 2020/04/27.

Sufism is a complex discourse due to its branched components between Sufi writing (Poetry and Prose), spiritual practice (it is about all that which is spiritual), and the Sufi terminology (symbolic terms which have particular contexts, terms and meanings). This poses us a major problem about what Islamic Sufism is, what the cognitive origins and the cultural references of Sufi discourse are and what its particularities relating to its textual manifestations are.

Keywords : Sufism, Islamic Sufism, Symbol, signal, expression, term, definition, the cognitive background.

1- التصوف والماهية :

- التصوف لغة:

تعددت التعاريف التي حاولت ضبط مصطلح التصوف، وذلك راجع إلى طبيعة اللفظ المجهول المصدر والاشتقاق وذلك حسب رأي الوصيفي الذي يقول (إن لفظة التصوف مادة مجهولة الاشتقاق والمصدر، ولذلك اختلف علماء اللغة في أمرها على عدة أقوال، أثارت حولها الجدل واتسع لأجلها النقاش والراجح أن الصوفية مشتقة من لبس الصوف)[1].

وقد وردت لفظة "التصوف" في العديد من المعاجم اللغوية، ومن بينها لسان العرب الذي جاءت فيه لفظة التصوف في مادة (ص و ف)، على حسب (الصوف للضأن وما أشبهه: الصوف للغنم كالشَعر للمعز والوبر للإبل الجمع أصواف، وقد يقال للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع)[2].

أما "الزمخشري" في أساس البلاغة فيقول أن (الصوفية نسبوا إليهم تشبيها بهم في النسك والتعبد أو إلى أهل الصفة، فقيل مكان الصوفية بقلب أحد الفاءين واوا للتخفيف أو إلى الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع)[3].

إن جميع التعاريف التي خاضت في الاشتقاق اللغوي للفظة التصوف، أرجعت أصل اللفظ إلى الصوف، وبالتالي ربطه بالملبس الذي كان يلبسه المتصوفة من الصوف، أو إلى الصفاء والصفو تطهيرا للجسد وتزكية للنفس.

- التصوف اصطلاحا:

إن الأبحاث التي ركزت على مكونات التصوف وأجزائه وبحثت فيها، تعددت وتباينت ولم تستطع أن تضع مفهوما جامعا للتصوف. لكنها تتفق من حيث أن التصوف (هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور على

لذة ومال وجاه والانفراد على الخلق في الخلود والعبادة)[4]، والتصوف من هذا المنطلق هو العزوف عن كل ملذات الحياة، فهو عرفان وجداني وتمسك رباني، يترك الحياة ويزهد فيها.

ويعرفه البغدادي قائلا: (التصوف مبني على خصال: التمسك بالفقر والافتقار والتحقق من البذل، وترك الغرض والاختيار، وعرفه الكرخي: التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)[5]، وقال الجنيد: (أن تكون مع الله بلا علاقة)[6]. وصفات المتصوفين تدل عليه (أي التصوف) إذ (إنهم كانوا لابسين الصوف وهو الذي كانوا يملكونه دون غيره من القطن، لأنه كان متوفرا لديهم، وهذا المعنى الذي لاحظه الصوفيون بعد زمنه صلى الله عليه وسلم ووجدوا فيه الفقر والعجز، فنسبوا أنفسهم إلى هذه الكلمة)[7].

الجامع بين هذه التعاريف كلها، أن التصوف أو المتصوف هو الذي يتوجه إلى الله تعالى توجها عميقا، يقطع صلاته بجميع الخلائق، ويعتزل الملذات ويتفرغ إلى الخالق، وذلك رغبة في الوصول إلى الحب الحقيقي وتحقيقه، حب بلا مقابل الذي هو حب الله والفناء فيه، أين تكون الأشياء بالله ولله. فهذا محي الدين بن عربي يقول في غزله الإلهي:

(حَقيقَتي همتُ بِها وَمَا رَآهَا بَصَري
وَلَوْ رآهَا لِغدَا قَتِيل ذاكَ الحورِ
فَعنْدَمَا أبْصَرْتُهَا صرْتُ بِحُكْم النّظَرِ
أَبيتُ مَسْحورًا بهَا أَهيمُ حتَى السحرِ
يا حَذَري مِنْ حَذَري لَوْ كَانَ يَعْنِى حَذرِي
والله مَا هَيَّمَنِي جَمَالُ ذَاكَ الخَفَرِ
في حُسْنهَا مِن طِيبَة تُرَى بِذاتِ الخُمُرِ
إذا رَقتْ أَوْ عَطَفَتْ تَسْبِي عُقُولَ البشرِ
كَأَنَّمَا أَنْفَاسُهَا أعْرَافُ مِسْكٍ عَطِرِ
كَأنَّهَا شّمْسُ الضُحَى فِي النُّورِ كَالقَمَرِ
إنْ أَسْفَرتْ أبْرَزَهَا نُورُ صَبَاحٍ مُسْفرِ
أو سَدّلَتْ غَيّبهَا سَوادُ ذَاكَ الشَّعَرِ
يَا قَمَرًا تَحْتَ دُجَى خُذِي فُؤادِي وَذَرِى
عَينِي لِكَي أَبْصُركِ إن كَانَ حَظّي نَظَرِي)[8]

هذا غزل إلهي وشوق رباني، يوحي إلى تعلق الذات الشاعرة والمتصوفة بالحب الإلهي الأزلي، هذا الحب الذي يقف في وجه الآخر الإنسي، إذ أن الشاعر هنا تحقق عنده رؤية الحسناء التي أهلكه جمالها، التي وصفها بالشمس والقمر، لكنه لم يحظ منها إلا بالنظر، وهذا بسبب التأمل في الوجود،

وعشق المُوجد، إذ غلبت مظاهر الوجود الشمس والقمر والدجى التي خلقها الله مظاهر الحسناء التي أحبها، والتي لا تتجلى إلا بتجلي مظاهر الوجود، وبهذا يتطلع الشاعر ابن عربي إلى الوصول إلى جانب الذات الإلهية، وتحقيق الوصال الذي تسعى إليه الذات المتصوفة، لأنه هذا هو الحب الأزلي الذي لا يزول.

ويقوم التصوف، إضافة إلى الفناء في حب وعشق الذات الإلهية، على مجموعة من القواعد الأساسية التي يجب أن تتوفر في المتصوف، وهذه القواعد مماشية لتعاليم الدين ومسايرة للشريعة، فهي لا تخرج عن (أحكامها الباطنية ونواميسها الخفية وتلك القواعد هي:

1- صفاء النفس ومحاسبتها
2- قصد وجه الله
3- التمسك بالفقر والافتقار
4- توطين القلب على الرحمة والمحبة
5- التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لإتمامها) [9].
6- وهذا بمعنى أن الإنسان الذي يريد أن يصبح متصوفا، يجب عليه أن يصفي نفسه من الزلات والرذائل، ويقوم بمحاسبة نفسه بنفسه قبل أن تحاسب من قبل الله تعالى، ثم ثانيا يجب عليه أن يقصد وجهه و يسعى إلى رضوانه، وذلك من خلال أفعاله وأقواله التي تكون ابتغاء لوجه الله تعالى، وثالثا أن يكون المتصوف زاهدًا في الدنيا، قانعا متمسكا بالفقر، حرمانا للنفس من زينة الحياة، ورابعا هي أن يتحلى الصوفي بالحب والمحبة، ويلزم قلبه محبة المسلمين واحترامهم ورحمتهم، ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير، وخامسا التخلق بالأخلاق، وهو أن يكون الصوفي عاليا بأخلاقه ومعاملاته، هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع الناس الآخرين، وفي هذا المقام يقول الحلاج في شعره:

(إلـى كمْ أنـت في بحرِ الخطـايَـا تـبُـارزُ مـن يـراك، ولا تـراهُ
وسـمتـك سـمـت ذا ورعٍ ودين، وفـعـلـك فـعـل مـتـبـع هـواهُ
فيـا من بـاتَ يخلُو بـالمعـاصـي، وعـيـنُ الله شـاهـدةٌ، تـراهُ
أتـطـمـع أن تـنـالَ الـعـفـوَ ممَـن عصـيـتَ، وأنـتَ لم تطلب رضـاهُ
أتـفـرحُ بـالـذنـوبِ وبـالـخـطـايـا، وتـنـسـاهُ، ولا أحـدٌ سـواهُ
فـتـبْ قـبـلَ الـمـمـاتِ، وقـبـلَ يـوم يلاقى العبـدُ مـا كسـبـتْ يـداه)[10]

هذه أبيات يوجهها أحد المتصوفة الكبار الذي هو "الحلاج" إلى من يحيا في معصية ربه، غير مكترث بلقائه وذلك في أسلوب استفهامي توبيخي يدعو من خلاله العاصي، إلى التوبة قبل الممات والحشر، مستندا على آيات من القرآن الكريم وهذا في قوله "يوم يلاقي العبد ما كسبت يداه"، وذلك

حسب ما ورد في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[11].

2- **نشأة التصوف الإسلامي:**

إن فترة ظهور الإسلام تعتبر من أهم الفترات التي كان فيها الإقبال على الدين والزهد في الدنيا غالبا على المسلمين، عكفوا على الطاعات، وعزموا على الانقطاع إلى الله، فكان الأوائل الذين لبوا نداء الرسالة يسمون بالصحابة، والجيل الثاني يسمون بالتابعين.

في القرن الثاني بدأ الناس يبتعدون قليلا عن الدين ويقبلون على الدنيا، (ثم ظهرت الفرق الإسلامية، فادعى كل فريق فيهم زهادًا وعبادًا، هناك انفرد خواص أهل السنة المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)[12].

وفي مقام أخر هناك من يقول إن المرحلة التي ظهر فيها التصوف تسمى (بمرحلة الزهد، وهي واقعة بين القرنين الأول والثاني الهجريين فقد كان أفراد من المسلمين أقبلوا على العبادة بأدعية وقربات، وكانت لهم طريقة زهدية في الحياة تتصل بالمأكل والملبس والمسكن، وقد أرادوا العمل من أجل الآخرة، فأثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك، ونضرب لأولئك مثلا الحسن البصري المتوفى سنة 110هـ، ورابعة العدوية المتوفاة سنة 185هـ)[13].

ثم في مرحلة أخرى أكثر نضجا بداية من القرن الثالث، برزت معالم التصوف الإسلامي، وتجلت أسسهم الفكرية حيث:

- صار التصوف على أيديهم علما للأخلاق الدينية.
- كانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق في دراسة النفس الإنسانية.
- الكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها.
- الكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك.
- ظهر علم للصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية، له لغته الاصطلاحية الخاصة يحتاج مراميها إلى جهد غير قليل.

وهذه المرحلة مثلها مجموعة من كبار المتصوفة أمثال القشيري في الرسالة، السهروردى البغدادي وغيرهم)[14]، لكن في هاته المرحلة من التصوف في القرن الثالث الهجري ظهر نوع آخر من التصوف يمثله الحلاج الذي (أعدم لمقالته سنة 409هـ، ويبدو أنه كان متأثرا فيه بعناصر أجنبية)[15].

وفي هذه الفترة ظهر ما يسمى (**بعلم التصوف** على أيدي الجنيد ومدرسته، وأصله من العلوم الشرعية التي لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، طريقه الحق والهداية، وأصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله...)[16].

وهناك فترة أخرى يمثلها الإمام الغزالي في القرن الخامس للهجرة (الذي لم يقبل من التصوف إلا ما كان متمشيا مع الكتاب والسنة، راميا في الزهد والتقشف وتهذيب النفس وإصلاح أخلاقها، وقد عمق الغزالي في الكلام والمعرفة الصوفية على نحو لم يسبق إليه، وقد ساهم في إرساء بعض نوع من التصوف، معتدل يساير مذهب أهل السنة والجماعة، ويخالف تصوف الحلاج والبسطامي في الطابع)[17]، وما استحدثه الغزالي في التصوف جعله شخصية عظيمة مهدت لنفوذ التصوف السني في العالم الإسلامي فيما بعد.

أما الفترة الأخيرة لتطور مذهب التصوف فقد كانت في القرن السابع للهجرة، في هاته المرحلة ظهر ما يسمى ("بالمدرسة الوجودية" التي تدعو إلى وحدة الوجود، ويزعم أصحاب هذه المدرسة أن لمذهبهم أصلا قديما، فهم يُؤولون الآيات القرآنية بما يعزز مذهبهم، كما يؤولون كلام الأشاعرة الأقدمين في أن كل حال روحية إنما هي فعل من أفعال الله التي لا تحتاج واسطة ولامبالغات)[18].

3- المرجعيات الفكرية للتصوف الإسلامي:

بعد الجدال الذي حدث بين الباحثين والدارسين، حول مسألة رد التصوف إلى أصوله المعرفية ومرجعياته الثقافية التي استقى منها منهجه ومقولاته، ظهرت ثلاثة فرق مختلفة الاتجاه، الأولى ترد التصوف إلى مرجع وأصل إسلامي بحت، أما الثانية فترده إلى أصول أجنبية وافدة، والثالثة وقفت موقفا وسطا تسلم بالأصل الإسلامي للتصوف، لكن مع دخول المؤثرات الأجنبية فيه.

أ- المرجع الإسلامي للتصوف:

إن المرجع الأساسي والمصدر الأولي للتصوف في الحضارة الإسلامية هو القرآن والسنة، فنهما (استمد الصوفية آراءهم في الأخلاق والسلوك، ورياضاتهم العلمية التي اصطنعوها من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية)[19]، فكانت الآيات القرآنية والأحاديث مرجعا مهما يعتمد عليه المتصوفة في نهج مذهبهم.

وهذا ما أشار إليه ماسينيون في قوله (ويجوز للمتصوفة المسلمين أن يزعموا أنه كان بين الصحابة رجلان يعدان بحق السابقين إلى التصوف وهما أبو ذر وحذيفة)[20]، وهذا دليل على أن المتصوفة قد كان تأثرهم واضحا بسلوك الصحابة وبأقوالهم الدالة على الزهد والإقبال على الله والإعراض عن الدنيا وما فيها

كانت للتصوف الإسلامي مرجعية مهمة تتمثل في الدين والرسالة التي أتى بها الرسول محمد صلى الله عيه وسلم، إذ إنه هناك (من زعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان متصوفا، تقول "أنا ماري شميل" محمد هو على رأس رجال الصوفية، وقد أصبح عروجه إلى الحضرة الإلهية مسطرا نصا في سورة الإسراء، وتأويلا – في نظر الصوفية – في سورة النجم مثالا يحتذى في صعود الصوفي بروحه إلى جانب الذات الإلهية، وقد جاء في الأثر أن الحكمة المحمدية انتقلت من بعد النبي صلى الله عيه وسلم

إلى ابن عمه وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب، وقد نُسب إلى آخرين من أهل بيته وأصحابه أنهم كانوا موهوبين في الكشف الصوفي)[21]، والكشف الصوفي هو تلك الموهبة الربانية التي لا يمنحها الله إلا لمن اصطفاه من عباده.

ب-المصدر **الأجنبي للتصوف:**

هناك طائفة من المستشرقين ردّوا مصدر التصوف إلى مرجعيات أجنبية عن الإسلام، فهناك من يقول إن أصله من مصدر فارسي من بينهم (ثولك (thoulk) وهو من قدماء المستشرقين في القرن التاسع عشر، والذي ذهب إلى أن التصوف مأخوذ من أصل مجوسي، وحجته في ذلك أن عددا كبيرا من المجوس ظلوا على مجوسيتهم في شمال إيران بعد الفتح الإسلامي وأن كثيرا من مشايخ الصوفية الكبار ظهروا في الشمال في إقليم خراسان، وأن بعض مؤسسي فرق الصوفية الأوائل كانوا من أصل مجوسي)[22].

ونجد على غرار ثولك، المستشرق دوزى (Dozy) الذي يرى أن التصوف (جاء إلى المسلمين من فارس، أن فكرة صدور كل شيء عن الله والقول بأن العالم لا وجود له في ذاته، وأن الموجد الحقيقي هو الله، ظهرت منذ أحقاب بعيدة في فارس، وكل هذه المعاني يفيض بها التصوف الإسلامي)[23]، وهذا بمعنى أن هناك أفكارا لازمت التصوف الإسلامي بصفة خاصة والفكر الإسلامي عامة - كفكرة وجود الله خالق هذا الكون وموجده، و حقيقة وجود العالم – لها جذور ممتدة لدى الفرس.

ج-التصوف **من أصل مسيحي:**

إن الذين يُسلمون بأن التصوف ذو مرجع أو مصدر مسيحي قد أقاموا نظرتهم هذه على بعض الأسس والمبادئ منها:

(أولا: أنه هناك صلات بين العرب والنصارى في الجاهلية والإسلام.

الثانية: ما يلاحظ من أوجه الشبه بين حياة الزهاد والصوفية في تعاليمهم وفنونهم في الرياضة والخلوة، وبين ما يقابل هذا في حياة السيد المسيح وأقواله وطرقهم في العبادة والملبس)[24]، ويمكن أن نشير هنا أيضا إلى أوجه الشبه الموجود بين الرهبان عند المسيح والمتصوفة المسلمين، إذ أن كلا منهم رافض لفكرة الزواج من مبدأ التفرغ إلى الله، والتخلي عن العلاقة بالمخلوق والتقرب إلى الخالق فقط، طريقة ملبسهم فكل منهم يتخذ لنفسه نوعا من اللباس يفرقه عن عامة الناس.

وهذا التأثر بالمسيحية، نجده عند أحد فلاسفة الصوفية الذي هو (الحلاج الذي استخدم في تصوفه مصطلحات مسيحية ككلمة اللاهوت والناسوت وما إليها من المصطلحات)[25]، لكن هنا يمكننا أن نقول إن الحلاج اشتهر في القرن الثالث هجري، والتصوف كانت بداياته في القرن الأول للهجرة أين رست دعائمه وأصبح مرجعا لكل تصوف لاحق، هذا يعني أن الأصل الإسلامي للتصوف

عند المسلمين لا شك فيه، وإنما ما ظهر فيما بعد من تأثيرات خارجية لم يكن إلا بفعل الفتوحات الإسلامية التي فتحت المجال للتأثير والتأثر.

د-المصدر اليوناني للتصوف:

تأثر العديد من المتصوفة المسلمين بالفلسفة اليونانية، أمثال "الحلاج، ابن عربي، ابن سبعين..."، وهذا بفضل الانفتاح على الفلسفات والديانات الأخرى (حيث تسرب إلى التصوف المذهب الأيوني وهو الاعتقاد بالشمول ومفواه أن جميع أوجه الطبيعة مظاهر للألوهية وأن الوجود كله في الحقيقة هو الله، وهذا هو القول بوحدة الوجود عند ابن عربي)[26]. وبين هذين الطرحين، وقف دارسون آخرون موقفا وسطا حيث أقروا أن للتصوف الإسلامي جذورا إسلامية متغلغلة، لكنه لا يمكن أن ننكر التأثر والتأثير الذي حدث بين الحضارات بفضل الفتوحات الإسلامية، وبما أنه قد تم تأكيد وجود ملامح التصوف في بعض الديانات والحضارات القديمة فإن هذا بالضرورة سيؤثر على التصوف الإسلامي الذي أتى من بعد وهذا ما تبين عند ابن عربي وآخرين من المتصوفين الإسلاميين.

فحتى لو نفينا التأثير والتأثر بين الحضارات فيما يخص التصوف، إلا أنه لا يمكننا أن نسلم بأن للتصوف مصدرا وحيدا هو الحضارة الإسلامية، وهذا نظرا لطبيعة هذه الممارسة الروحية والوجدانية التي تخص النفس الإنسانية، وبالتالي فلكل إنسان انتماء ديني روحاني يُقر بوجود إله مُوجِدٍ لهذا الكون، وطريقة في العبادة والزهد وهذا ما أشار إليه عمر فروخ حين قال: (شاع التصوف في الأديان والأمم كلها في الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية والإسلام ولقد عرفه في بعض أشكاله البابليون واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والعجم ولقد عرفته بعض الأمم الفطرية)[27]، ويقول ماسينيون في كتابه التصوف (كل بنية دينية يتوافر لأبنائها الإخلاص و التفكير تصلح لأن يظهر فيها روح التصوف، فليس التصوف إذًا من خصائص عنصر أو لغة أو أمة؛ بل هو مظهر روحي لا تحده مثل هذه الحدود المادية)[28].

4- خصوصيات الخطاب الصوفي:

أ-إشكالية المصطلح:

إن المعاني والدلالات المتشعبة والمتسعة التي تحملها مصطلحات المتصوفة أحدثت إشكالا حادا لدى الدارسين والباحثين الذين يغوصون في هذا المجال، فالمصطلح عند المتصوفة (تجاوز مجرد الدلالة اللغوية النحوية بحيث أصبح يمتد ليصنع شبكة مترامية الأطراف من المعاني التوليدية المترتبة عن اشتراك المصطلح الواحد في التعبير عن أكثر من منحى من مناحي النظرية الصوفية)[29]؛ بمعنى أن المصطلح لا يحمل دلالة لغوية نحوية تفهم من سياق الكلام ومن المقام الذي طرحت فيه الكلمة، بل تتعدى ذلك وتنتج ما لا يعد ويحصى من الدلالات التوليدية، وهذا بسبب استعمال المصطلح الواحد للدلالة والتعبير عن عدة أغراض مختلفة.

وهذا ما اشتهر به المتصوفة إذ (يستعملون مصطلحات محملة بشحنات وجدانية عميقة لها من الدلالة ما يوحي بأن هذه الرموز إما لمتصوفة، أو لرهبان)[30] وهاته المصطلحات غير العادية تنم عن قوة خيالهم وقدرتهم في النسج اللفظي الخلاق، فالخطاب الصوفي يملك من الخصائص والمقومات الفنية التي تتشكل وفق قوالب لغوية وبلاغية أسلوبية، ما يجعله يتفرد عن غيره من الخطابات.

فمثلا مصطلح ("الإنسان الكامل" عند المتصوفة يحمل من الدلالات ما لا يعد ولا يحصى، هذا ما أشار إليه ابن عربي والدكتورة سعاد الحكيم في المعجم الصوفي، فهو - أي الإنسان الكامل - حقيقة الحقائق، الخلق المخلوف به، فلك الحياة، أصل العالم، أصل الجوهر، الفرد، الهيولى، المادة الأولى، جنس الأجناس، الحقيقة الكلية، الفلك المحيط، العدل، كل شيء، الكتاب، المفيض، مركز الدائرة، العقل الأول، العلم الأعلى، العقاب... هاته المصطلحات لا تحمل نفس المعنى، لكنها تؤدي نفس الدلالة وهو الإنسان الكامل)[31].

وهذا يدل على مرتبة اللغة عند المتصوفة التي تتجاوز اللغة العادية، فالمتصوف يريد من خلال لغته أن ينسلخ عن الوجود وينفذ إلى ما وراء المألوف والمعتاد، إنه ينطلق من لغة ومصطلحات موجودة إلى مفاهيم ودلالات متعالية تمنح للمتصوف التحرر والوصول إلى مرتبة الوجود الفعلي حيث الفناء المطلق. إذ أن (اللغة عند المتصوفة تكتسب أبعادا أنطولوجية وجودية وهي ليست وسيلة للتعبير عن فكر أو شعور، وإنما هي موقف في حد ذاته، لأنها تعبر عن نوع معين من المعرفة وليس ثمة مجال آخر يمكن أن تظهر من خلاله هذه المعرفة)[32]، فهم وجدوا السبيل الوحيد للتعبير عن فكرهم وعن رؤاهم في اللغة، لكن ليس اللغة العادية بل باللغة المبهمة والغامضة التي لا يفهمها إلا المتصوف نفسه، فهم (يطلقون الخمر والعين والخد والشعر والوجه كألفاظ ترمز إلى مدلولات غير تلك التي تعارف عليها الناس في دنيا الحس)[33]، فالصوفي يأخذ ألفاظا لغوية من العالم الحسي، ويرتقي بها إلى العالم الروحي ليصنع عالما جديدا لا يسمح الخوض فيه إلا لمن كان منهم أو قريبا منهم.

إن هذه اللغة تعطي نوعا من الشعرية للنص الصوفي، هذا ما يُحدث في القارئ رغبة الاكتشاف، إذ تُدخله في حركة من المفارقات والتخمينات، وهذا ما يحقق متعة القراءة، فالشعرية في اللغة الصوفية لا تتعلق بالقيمة الفنية والجمالية أكثر مما تتعلق باللامألوف، وكسر القوالب اللغوية المحدودة الدلالة، والخوض في المضمر والمسكوت عنه، بطريقة مضمرة ومسكوت عنها في الوقت نفسه.

ب-الرمز والإشارة:

عمدّ المتصوفة إلى تبطين خطابهم بنوع من الرمز الذي يخفي المعنى الحقيقي، فالمعروف عنهم أنهم لا يتكلمون بلسان العامة، ولا يخوضون في المسائل العادية، بل أنهم يتكلمون بالرمز والإشارة، فالمتعارف (أن الكلمات ترمز أو تشير إلى الفكرة أو المحتوى الذهني، وغالبا ما يكون المحتوى الذهني

الذي تشير إليه مصطلحات المتصوفة رموزا تعارفوها فيما بينهم، لا يظفر بها غير أهلها، أو هي إشارات رمزية تفصح عن معناها فقط عندما تبقى رموزا، فإذا صارت عبارات خفيت على المستمع)[34].

فاستعمال الرمز في الأدب الصوفي ما هو إلا حاجة ملحة، يتجسد من خلالها الغموض الذي يفضي إلى إنتاج لغة لا عادية، تستوطن أعماق النفس الصوفية لكي تعبر عن الجوانب المبهمة والمسكوت عنها.

فمن هذا المنطلق وجب على الدارسين والباحثين في مجال الخطاب الصوفي أخذ الحيطة والحذر مع الرموز التي يستخدمونها، فالعبارة لا يجب أن تحمل معناها إلا بشكل خفي و(المعلوم أن المتصوفة - في مرحلة من مراحل التصوف – قد أحكموا إغلاق أدبهم بمتاريس الإشارة التي لا يملك مفاتيحها إلا أصحابها، ولا يعرف سبر أغوارها وفك رموزها، وأحاطوا خطابهم بأسوار من اللغة والألفاظ انفردوا بها عمّا سواهم، تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على ما باينهم في طريقهم لتكوين معان مبهمة لألفاظهم على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها)[35].

جعل المتصوفة من أدبهم سلاحا للدعوة إلى الله وتجميل الحياة وتطهيرها، ومقاومة الملذات والزلات التي تدعو إليها الحياة الفانية، وهذا ما جعل شعرهم ونثرهم يرتقي إلى درجة عالية من حيث القيمة الفنية والجمالية، ومن حيث القيمة الفكرية نظرا لما يحمله من قيم نبيلة، ورسائل للمحبة تدعو الإنسان إلى الحب من أجل السعادة، حب الله والفناء فيه.

الهوامش:

[1] بطرس البستاني: محيط المحيط، مادة (ص و ف)، مكتبة لبنان ناشرون، د. ط، بيروت، 1998، ص: 525.

[2] ابن منظور: لسان العرب، المجلد 8، دار صادر للطباعة والنشر، د. ط، بيروت، لبنان، ص 188.

[3] الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل، دار الكتاب العلمية، د. ط، بيروت، لبنان، 1998، ص: 564.

[4] ابن خلدون: لمقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 199، ص: 457.

[5] أحمد أمين: ظهر الاسلام، المجلد 2، دار الكتاب العربي، ط 5، بيروت، لبنان، 1969، ص: 152، 153.

[6] الطوسي: اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، د. ط، 1960، ص: 45، نقلا عن: عبد الرشيد هميس: حضور التصوف في الخطاب الروائي العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة 1، 2017، 2018، ص: 14.

[7] عبد القادر بن حبيب السندي: التصوف في ميزان التحقيق والبحث والرد على ابن عربي الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة ابن القيم، ط 1، المدينة النبوية، يونيو 1990، ص: 33، 34.

[8] أحمد المقرى: نفح الطيب، مج 2، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط 1، مصر، 1949، ص: 322، نقلا عن: علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، د. ط، القاهرة، د. ت، ص: 19.

[9] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة والنشر، د. ط، القاهرة، د. ت، ص: 15.

[10] الحلاج: الديوان، جمع وتحقيق: كامل مصطفى الشيبي، 1973، ص: 17، 18، نقلا عن: علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص: 25.

[11] قرآن كريم، سورة الإسراء، الآية رقم: 13، 14.

[12] ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق: التصوف، تر: ابراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت، 1984، ص، 52.

[13] التفتازاني: مدخل إلى علم التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 3، القاهرة، 1989، ص: 17.

[14] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15] المرجع نفسه، ص: 17.

[16] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، ص: 21.

[17] المرجع نفسه، ص: 18.

[18] ماسينيوس ومصطفى عبد الرزاق: التصوف، ص: 41.

[19] التفتازاني: مدخل إلى علم التصوف الإسلامي، ص: 48.

[20] المرجع نفسه، ص: 29، 30.

[21] شميل آنا ماري: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل، السيد ورضا، حامد قطب، منشورات الجيل، ط 1، بغداد، 2006، ص: 245، نقلا عن: عبد الرحمان قاسم: أصالة الخطاب الصوفي الإسلامي، مجلة الخطاب الصوفي، العدد السادس، جامعة الجزائر 2، ص: 63.

[22] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، ص: 36.

[23] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24] المرجع نفسه، ص: 37.

[25] المرجع نفسه، ص: 38، 39.

[26] عبد الرشيد هميسي: حضور التصوف في الخطاب الروائي العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2017 - 2018، ص: 26.

[27] عمر فروخ: التصوف في الإسلام، دار العلم، ط 4، 1972، ص: 20، نقلا عن: عبد الرشيد هميسي: حضور التصوف في الخطاب الروائي العربي المعاصر، ص: 25.

[28] ماسنيون ومصطفى عبد الرزاق: التصوف، ص: 480.

[29] ابراهيم محمد ياسين: دلالة المصطلح في التصوف إشارات فلسفية في كلمات صوفية، دار المعارف، د. ط، القاهرة، 1999، ص: 104.

[30] المرجع نفسه، ص: 105، 106.

[31] سعاد الحكيم: المعجم الصوفي "الحكمة في حدود الكلمة"، دندرة للطباعة والنشر، ط 1، لبنان، 1981، ص: 242.

[32] حميدي خميسي: مقالات في الأدب والفلسفة والتصوف، دار الحكمة للنشر والتوزيع، د. ط، الجزائر، د. ت، ص: 80.

[33] علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص: 12.

[34] المرجع نفسه، ص: 104.

[35] ينظر: الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب التصوف، ضبط وتعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، د. ت، ص: 89.

قائمة المراجع والمصادر:

القرآن الكريم

1) ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1993.
2) ابن منظور: لسان العرب، المجلد 8، دار صادر للطباعة والنشر، د. ط، بيروت، د. ت.
3) أحمد أمين: ظهر الاسلام المجلد 2، دار الكتاب العربي، ط 5، بيروت لبنان، د. ت.
4) أنا ماري شميل: الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد اسماعيل رضا، حامد قطب، منشورات الجيل، ط 1، بغداد، 2006.
5) التفتازاني: مدخل إلى علم التصوف الإسلامي، إشارات فلسفية في كلمات صوفية، دار المعارف، د. ط، القاهرة، 1999.
6) الحلاج: الديوان، جمع وتحقيق: كامل مصطفى الشيبي، 1973، نقلا عن: علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، د. ط، الجزائر، د ت.
7) الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، د. ط، بيروت، لبنان، 1998.
8) حميدي خميسي: مقالات في الأدب والفلسفة والتصوف، دار الحكمة للنشر والتوزيع، د. ط، الجزائر، د. ت.
9) سعاد الحكيم: المعجم الصوفي "الحكمة في حدود الكلمة"، دندرة للطباعة والنشر، ط 1، لبنان، 1981، ص: 243.
10) الطوسي: اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، د. ط، 1960.
11) عبد الرحمان قاسم: أصالة الخطاب الصوفي الاسلامي، مجلة الخطاب الصوفي، ع 6، جامعة الجزائر 2، 2013.
12) عبد الرشيد هميسي: حضور التصوف في الخطاب الروائي العربي المعاصر، جامعة الحاج الخضر، باتنة 2017، 2018.
13) عبد القادر بن حبيب السندي: التصوف في ميزان التحقيق، مكتبة ابن القيم، ط 1، المدينة النبوية، 1990.
14) الكلاباذي، أبو بكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب التصوف، ضبط وتعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، د. ت.
15) عمر فروح: التصوف في الإسلام، دار العلم، ط 4، 1972.
16) محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة والنشر، د. ط، القاهرة، د. ت.
17) ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق: التصوف، تر: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت، 1984.